ولادة الهيئة..
هل زاغ البصر أو طغى؟!

أبو عماد الشامي
aboimad708

مؤسسة نخبة الفكر

تقدم:

ولادة الهيئة..

هل زاغ البصر أو طغى؟!

كتبه الأخ المجاهد:

أبو عماد الشامي

-حفظه الله ورعاه-

جمادى الآخرة ١٤٣٨ - ٣/ ٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس من الشطط القول أن المعركة في الشام هي الكبرى في تاريخ الأمة المسلمة منذ أن هلك عنها سلطانها وأفلت خلافتها؛ فهي الكبرى في هذا الحضور الجهادي العارم غير المسبوق في حجم اقتداره وعظم عطائه، والكبرى لما تدفق في مجراها من نزف وألم وجهاد لم يشهد مثله، تجلد خلاله أهل الشام لفظائع وأهوال لا صبر عليها، ودفعت فيها راحات الأيدي حد الخناجر والنصال، في إصرار عجيب وصمود مهيب، وإباء مضرّج بالدم المنهر والدمع الجاري.. وهي المعركة الكبرى بما تشابك في ساحتها من صراع وتناقض دولي بالغ التعقيد كثير الأطراف، عميق الخلاف، ولّد فسحات استقرار ومجالات هدوء استثنائية، وفرت للعاملين لهذا الدين للمرة الأولى في قلب الأمة النابض مساحة رحبة للتشييد والبناء، وروافدًا تنهمر طاقة وموارداً ومقدرات، وحزمة متكاملة من المقومات، كانت مؤهلة لبدء نهوض جدي نحو إعادة السلطان المغيّب.

لكن الأودية سالت بغير قدرها الذي نشتهيه، وأدى تتابع المعاول الذاتية مع عوامل الحتّ الخارجية إلى نكبات موجعة، أتت بنيان الطموح من القواعد بعد سنين من الفاعلية الهدّامة، فخر سقف الآمال، وتضاءلت آفاق الممكن، وضاقت مساحة الحركة والاختيار، وأمسى الخوف من تحول الشام إلى فرصة ضائعة وتجربة عابرة أخرى —برغم كل ما اجتمع لها– أمرًا مقلقًا مؤرقًا، تتراءى كوارثه لكل بصير حريص؛ فالأذى البالغ المستدام على دعوة الجهاد وحركته سيتعاقب لأجيال، بل سيتعدى الخراب ليطال العمل الإسلامي برمته، وستتكفل الصدمة الفكرية والاجتماعية بنفي الفكر الجهادي إلى مآرزه في أطراف العالم الإسلامي، بلا قوة ولا ناصر، بعد أن تحمّله آلة الباطل كل أوزار الفشل والرسوب، وتَغرس في أذهان الشعوب ما يدفعه عن أي سوق آخر يقدر الله قيامته، فلا يدخله إلا مطليًّا متنكرًا، وإلا كان له كالطائف لدعوة النبوة الأولى، بحجارة الأهالي قبل الأسياد.

إن الانكسار في الشام —لا قدر الله– سيحدث زلزلة وهزة عنيفة، ذات تداعيات مخيفة على المنطقة وهويتها، ومصير أهل السنة فيها لعقود كثيرة قادمة، وستلاحق الجوائح من تبقى منهم جيلا بعد جيل،

جوائح في العقيدة والتصور والثقافة، في التربية والسلوك، وأخرى في الأنفس والاعراض، مع تيه وضيعة يهرم فيهما الكبير ويشيب الصغير، وذكرى حرب تشتَم بكرةً وعشيّا، وتلقى خطاياها على أهل اللحى، كلهم جميعا؛ الذين لن يملكوا حينها توضيحًا ولا شرحا، فالمشرّد المهزوم لا يخط تاريخا، وقلما يجد آذانا تسمع ما يقول، أو تعبأ بالصوت الشريد.. وتغدو الشام بعدها معزوفةً مفضلةً ذات أثر بالغ في تخدير الأمة ورفع مستوى سكرتها، يستدعيها الطواغيت عند كل قمع وظلم واضطهاد، وتستحيل معبرًا لخطط الإخضاع والإخصاء والتدجين والتغريب، ومثالا ثقيلاً يرهب كل دعوة تحرر وانعتاق، وفاقرةً لن يقوى ظهر الأمة على تحملها، فقهر ثورة بذلت كل هذا العذاب خليقٌ بإسكان الجموع في بيداء اليأس المديد، وقمين بإشباع الذهن الجماعي بالرضى والتسليم لواقع الأنظمة، مهما كان كئيبا مريرا.

و لا شك أن هذا الوجود الجهادي في الشام هو –بإذن الله– الضامن والحائل دون فشل هذه الثورة، والمانع من ضياع الجهاد وحلول هذه الكوارث وسواها الكثير، والحافظ لأهل الشام والأمة جمعاء؛ ولذا لا بد أن يستقر السعي للحفاظ على هذا الوجود في رأس هرم الأهمية، لدى الداخل والخارج، في ذهن كل مفتٍ وناصح ومرشد؛ وقد بات الواقع اليوم معززا للتخوفات، فارضًا لأولوية البقاء، موجبًا لخطوات وتحولات إسعافية، ومراجعات تصحيحية، في الواقع والفكر والممارسة، تنعش هذا الجسد الجهادي المنهك بالجراح، والمهدَّد بالقهر والإفناء.

إذِ الحال قد أمسى لا يرثى بحروف، متدهورًا في كل المستويات؛ فالكثير من أزِمّة الثورة آلت إلى يمين الداعم يبممها حيث شاء، ويرتهنها ورقة للعبه على طاولة الميسِر السياسي الدولي، مصادرًا لقرار الفصائل الخاضعة وسالبًا لإرادتها واستقلالها، بل ومحددًا للأهداف وأطر العمل ومجال التحرك، وبوصلة العسكرة والسياسة، واستطاع بلوغ منتهى العبث بتجميد الجنوب، وسوق الفصائل إلى الارتزاق في درع الفرات، وثالثة الأثافي تسليم حلب للروس بطوع الأحزاب الذليلة وإذعانها، ثم أطرِها إلى الأستانة بالسوط والعصا، لينتقل التآمر هناك إلى القوة الممانعة الباقية، الملتزمة بالخط الجهادي والوفية لمبادئ الثورة، والتي فشلت مساعي مراودتها عن نفسها، أو سوقها إلى القبول بالتنازل عن إسقاط النظام؛ فباتت تلك القوة المجاهدة الفاعلة مكشوفة تحت الأضواء الدولية والتركيز العالمي، ومحلاً للمساومة،

وقرباناً يخطَّط لتقديمه على مذبح التسوية المرتبقة، بعد أن حملت لسنين طوال جل أعباء الدفع والتحرير، ومنعِ الجبهات من التفتت والانهيار.

كل هذا في مشهد لم تعد فيه الحاضنة دافئة تماما، وبدأ الناس بالتساؤل عن موعد النهاية، وسرى بين الزحام تململٌ يتصاعد، بعدما ناء ظهرهم بالأحمال الثقال، وأنهكوا في معترك باتوا يشعرون أنهم الحلقة الأضعف فيه، ومَكسر عصا لكل الفرقاء، والجهة التي نالها جل النصب والعذاب، مع اشتداد المآسي واستمرار القصف والنزوح، وتتابع فشل عسكري وعجز أمني وخدمي، عزز هذا الفتور والنفور؛ وقد كان هذا شيئا يراد، ومرحلة ضمن خطة الغرف الداعمة، كرسوا في سبيله الحالة الفصائلية المنفرة للحاضنة، ليسهل بعد ذلك إخضاع الثورة حين الانتهاء من توظيفها، دون ممانعة شعب تكون غاية تطلعاته قد اختزلت في البحث عن فرجة أمل وطوق نجاة، أو بداية حلّ وفكاك.

فكان لا بد للمجاهدين من التحرك في قفزة نجاة وخطة إنقاذ، وخطوة إحياء، تضم القوة إلى القوة، وتعيد بث الروح في جسد الثورة المنهك، وتنهي المهزلة الفصائلية المهلكة، عبر سلطة جامعة وكيان أوحد، يلغي كل فصيل أعطى قليلا وأكدى، ويبني كتلة عسكرية ضاربة يمكن للشعب الاتكاء عليها والإيواء إليها، تخوض حرب المصير بالطاقة القصوى، مستثمرةً كل مورد قوة أو عامل صمود، وتراهن على جدوى العمل العسكري وتشرع بالإنجاز فيه، جاهدةً في إرجاع الدفء والأمل إلى أهل السنة واستنهاضهم من جديد؛ تنجز في الميدان، وتناور في المحيط لتثبيت جنى البنادق، وتفرض إن أحسنت الالتصاق بجماهيرها قوة سياسية في البيئة الإقليمية، مما يعرقل محاولات وأد الثورة وضرب الجهاد، ويصعّب من طيّ ملف الحرب في لحظة توافق الوكلاء والخلطاء.

على الهيئة اليوم إذن مسؤولية عظيمة وأمانة جليلة، لما تمثله من ملاذ أخير، للجهاد والثورة والأمة، تفرض عليها الحرص التام على صون الحالة الجهادية واستبقائها، وتسييج مكاسبها، فتتكيف مع الأخطار بسياسة شرعية تراعي حفظ الضرورات لا الشعارات، وتتجنب فرض مزيد من التحديات،

حريصة كل الحرص على منع فوات ما أمكن من المصالح، أمينة على الدماء والجراح، وميزاب يجمع ما تدفق في مجرى الشام المبارك ليصبه في إنبات شجرة الإسلام.

و هذا يحتاج إلى وعي تام بميزان القوى مع فهم حقيقي للذات، واستنباط فقه المرحلة من نظيرتها الملائمة في المسيرة النبوية، من حيث الأصلح والمتاح، والقدرة والاستطاعة، على ضوء التصور الصحيح لحجم الجماعة المسلمة وموقعها، ثم بصيرة تحدد الخط المناسب للسير والحركة وفنّ التعامل وفحوى الخطاب؛ وتختار من فقه الاستضعاف والعجز والعوز التي هي فيه ما يؤهل للنهوض والارتقاء، وتعقد التفاهمات والعلاقات بناء على الموازنة العميقة بين قوى الذات والمحيط، وبما يخدم الهدف الأوحد في هذه المرحلة، وهو استبقاء الجهاد وإسقاط النظام؛ وعلى ذلك تُفهم الرخص بغير اعوجاج، ويستفاد من مرونة الشريعة دون التواء، مع تجنب الاستغراق في الانتماء للمرحلة فيتطبع الكيان الوليد بها، بل يُعمل على ترسيخ روح التمكين والعزيمة في وجدان الأفراد، وفيهما يُبدأ ويعاد، ويُغرس في الثقافة والأدبيات الداخلية أنما هي درجة في سلم الصعود لإقامة دولة الإسلام، تسير بفقه طوارئ وواجب اضطرار، إلى أن يحدث الله بعد ذلك أمرا.

إن حصول الثقل السياسي المنشود متوقف على تعزيز الحضور الشعبي والسيادي؛ أما السيادي فلا بد من خطة لاستكماله، بما لا يؤثر على الرأي العام ومزاجه، لكن التحول إلى حالة جماهيرية هو قطب الرحى، وعلى الكيان الجديد أن ينفتح على ذلك بكليّته، مندمجًا بالجموع متحركا بهم، ليشكل معهم شخصية معنوية واحدة، بثلاثية الإسلام والأرض والثورة؛ فترسم الخطط وتحبك الرؤى، ويحرص على تقديم الوضع المدني في الإدارة والخدمات، وتسهيل نشاط هيئات المجتمع المدني مع لمسات جهادية، توحي على الدوام بتأييد فعالياتها للخط والكيان، وكذا إنشاء الروابط واللجان الطلابية والجامعية الموالية، وإبراز نشاطاتها، وتكثيف المؤتمرات الشعبية المحتفلة بنصر يحدث أو المؤبنة لقائد يرحل، أو المحتفية بالمناسبات التاريخية والثورية، والحرص على خطاب الجماهير فيها من قائد الهيئة أو نوابه؛ أما القضاء فمحك وامتحان، وبعدله يتأتى القبول والتأييد، ولا بد من إيلائه أهمية بالغة، والاعتناء بتنظيفه وتنزيهه، وإتاحة الشكوى الفعالة على العسكريين، وتفعيل الشريعة في كافة المجالات مع اعتبار القدرة والعلم

والأفهام، والتنبه إلى كل أداء يرجع على هدف التحشيد بالعرقلة والتأخير؛ ويبقى نصب الأعين على الدوام حمل الكافّة على واجب الوقت وتحميلهم همّ أدائه وإنجاحه، وهو إكمال مشوار الثورة الإسلامية ورفض الحلول السياسية، وتثبيت العامة على سقف إسقاط النظام. أما الانفتاح على الخارج وعلاقاته فلا يقل أهمية في حسابات البقاء، لكنه يفتقر إلى العناية الشديدة والحيطة والحذر، والدراسة التقييمية الدائمة، والمتابعة المستمرة لتقلبات مناخه وتجاذباته المتلاطمة، ومعرفة اتجاهاته وقبلة رياحه، لتبصر الهيئة بعد ذلك موضع القدم، وحدود فسحة التحرك الممكن، برؤية ترتكز على عمق فهم الواقع والنظر في العاقبة والمآل.. كل هذا سيجعل الاستهداف للهيئة حربًا مع الشعب نفسه، ولا بد أن يفكر مليّا من أراد إزاحة شعب أو إزالة حالة مقاومة متجذرة.

و مع هذا؛ فالخطى في هذا المسار تعوزها المراقبة الدائمة، فهو مضمار اضطرار حساس، لا يلجه إلا من عرف متانة دينهم وحسن سابقتهم، وقوة اعتزازهم بالإسلام واستعلائهم به، وعمق انتمائهم له، جربوا في محك الدنيا وفتنتها، وصقلوا في أتون المعارك وأنضجهم لهيبها، وعرف عنهم البلاء والبذل نصرة للشريعة وسعيا لإقامة دولتها؛ وهؤلاء إن حازوا الكلمة فلا خوف إن أعادوا صياغة ما تكلّس من سياسات فرضتها السرية، أو خففوا نبرة خطاب رفعها محارب عصابات لا شيء لديه ليخسره، أو أقاموا علاقات يفرضها موقع مسؤوليتهم عن رعاية شعب بأكمله ولزوم استجلاب مصالحه؛ فمن كليات هذا الدين أن الأمر إذا ضاق اتسع، والحاجة العامة عند نزولها تبيح ما كان بأصله محظورا محرما، ينزل فيها الجمْع والشعب منزلة الفرد في ضرورته الخاصة، وأي ضيق أشد مما نحن فيه، وأي حاجة آكد إلحاحًا من مطالب لا غنى عنها لتحصيل القوة والمناورة بها لحفظها، وصرف المكائد عنها، وتوجيه طاقتها لدفع الصائل الداهم العاجل! وكيف إذا كان كل هذا في أصله مأمورًا به أو مفضولا لا محرمًا ممنوعًا!

وهنا يتحتم على مشايخ الجهاد والعلامة أبا قتادة حفظه الله على وجه الخصوص، أن يوضحوا هذه الأحكام بما يلائم عظم النازلة، وبنظر يوفّق بين سد الذرائع وما ترخص به الشريعة وتجيزه، أو تأمر به إن علم بمدلول اليقين حصول الحرج البالغ بل الهزيمة بفواته؛ وأن يُفهموا الشباب أن حمل الناس على المطالب العالية في ظرف كهذا غير سديد، سيُجري عليهم وعلى الجهاد ما لا طاقة بدفعه أو ردّه، ويحيل

الشام أنقاض تجربة أخرى؛ إن المطلب اليوم هو إنشاء نفوس تهوى واقعية البناء لا بريق الشعار، تحمل هم المتابعة لا روح الفناء، وتؤمن بحتمية المرحليّة في الحركة والإنشاء، تحصر الخصومات ما أمكن وتتعلم فنّ التوجّه والتركيز، وتكظم غيظ مصافحة أيادٍ ترى قطعها، وتتفهم مد جسور الود مع مخالفٍ ما من وصله بدّ؛ تفرق بين التحرّف والانحراف، وتسارع إلى التأليف لا التصنيف، وتتروّض على التهدئة لالتقاط الأنفاس وتثبيت المكتسبات، فلا تستنفر لنسف ما نسج من تحولات ضرورية للديمومة والنماء، وتتحمل وجود المنافقين ممن لا فائدة في الانشغال بهم، وتدع أذاهم وتتوكل على الله؛ مستوعبةً أن كل هذا وغيره الكثير من الشريعة بمكان، يحتمه هدف حماية الجهود من التشتيت، وجهاد الأمة من التبدد والضياع.

أما الناقدون المتخوفون، المعرقلون، ممن يلقي تهم الزيغ والطغيان؛ فلا ينبغي أن يعلو صوتهم فوق صوت المعركة، وعليهم جمع أجزاء المشهد واستحضار سياقه كي تزال عنهم الغشاوة، وتنجلي الصورة، وإلا فانتزاع كل حركة أو كلمة ثم تأملها بمعزل عن واقعها سيبقي الضبابية التي يشتكونها؛ إن الحرب قد تكون آذنت بالختام، وأوشكت أن تذهب بها التسويات، وإن لم يلتحف الناس بعجرهم وبجرهم بشملة واحدة فالزوال هو المآل، وسيذهب الكفر بعدها بالفرقة الناجية، مع السبعين الأخرى، ثم لا يبقى لأهل الجهاد إلا تقليب الأكف، وترتيب المخابئ، والتلاوم على ما فرطنا في هذه الساحة السانحة وقد خوت على عروشها، والحسرة على ما أنفِق ولم تحفظ أمانته، مع شآبيب الندم على الاتعاظ بالنفس لا بالغير، والأسى لفوات الاعتبار بما خلا من قبلنا من تجارب ومثلات، بل بالذي يُرى عيانا في الجوار لدى كيان غلاةٍ اعتسف المراحل وتنكب السنن، وأسس بنيانه في التيه والعمى، فلا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، ثم قهرته سنن الله الغلّابة الحاكمة.

إن هذه الهيئة لا تبدو انعطافة ولا انحرافة، بل تطبيق لفقه أئمة القاعدة والطالبان وممارساتهم العملية، لكن الاعتبار خاصية لأولي الألباب، أما ضيقو الأفق ومن جُمّد عليه فكره، ممن لا يقبل أن تلبس كل الأمة إلا مقاسه؛ فلن يبرحوا على الفشل عاكفين، يصفقون بحفاوة لكل جمع منحدر إلى قاع الضياع، ويحثونه على الإسراع، وينظّرون لمشاريع تحفر الصخر وتحرث الماء، لا تمرع ولا توصل ولا تغني من جوع،

ولا تتوالى في صرحها لبنتان، كلما اتسقت الأخرى مع الأولى؛ انبعثوا لنثرهما جميعا! فتتشظى شررا يتفرق هنا وهناك، ثم لا يبقى له في سطوة الجليد المحيط إلا التلاشي والانطفاء.

أبو عماد الشامي

قناة التيلجرام:

https://t.me/aboimad708